الجمعيات الخيرية(١)

ايها السادة والسيدات

رئيس هذه الجمعية أشهر من ان يعرّف . صفوه بما شئتم من حسن الخصال وكرم الخلال والادب الرائع فلا تبالغوا وانا اوافقكم على ذلك واطرب لهُ. ولكنهُ ارتوذكسي عنيد فانهُ رغماً عن كل عذر قدّمتهُ وعطف التمستهُ كي يعفيني من هذا الموقف رحمة بكم من الجهة الواحدة وستراً لما بي من الجبن والحصر من الجهة الاخرى لم أستطع حملهُ على ذلك. وأبى الاّ افتضاحي وان يحملكم وقر سماعي

ولو وضعتم كل مساعيهِ في جعل هذه الحفلة مما تقرّ بهِ خواطركم في الكفة الواحدة وسوء اختيارهِ لي للكلام في الكفة الاخرى لرجحت الثانية الاولى وشككتم مثلي في مقدرتهِ على نقد الامور

ولكني اعترف اني لست اقلّ منهُ عناداً لان الدم الارثوذكسي يسري في عروقي كما يسري في عروقهِ فهو لم يكن ليتدبر عليّ ولم اكن أقدس اغراض هذه الجمعية وأقدر الشأن الذي لمثلها في خدمة الانسانية حق قدره . ولذلك لم يمكني الاباء عليهِ وفضلت ان أقف هذا الموقف مهما كان خطيراً وان يكون لي فخر خدمتها مهما كان عملي حقيراً وحسبي ما قيل

ما كلف الله نفساً فوق طاقتها ولا تجود يدٌ الاّ بما تجدُ

اقترح عليّ رئيس هذه الجمعية أن اقول كلمة في الجمعيات الخيرية وقد عرفتم من مقدمتي اني لستُ بالخطيب ولا المتكلم . ولكن في مثل غرض هذه الجمعية كلمة العاجز الحصر كمقالة الخطيب الفصن وفلسا الارملة كلايين الغني. ولما عزمت على الكلام ذكرت الآية الكريمة :

« ومتى قدّموكم الى المجامع والرؤساء والسلاطين فلا تهتموا كيف او بما تحتجون او بما تقولون » . وقول المتنبي :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق ان لم تسعد الحال

(١) خطبة لحضرة صاحب السعادة سعيد باشا شقير مدير حسابات السودان القاها في حفلة جمعية التدبير جاورجيوس الخيرية في ٢٩ فبراير ١٩٢٠

تاريخ الجمعيات الخيرية وكيف نشأت وارتقت في كل زمان ومكان شيء شرحهُ يطول فلا اكلفكم سماعهُ . ولكنها قديمة العهد جدًّا ولعلها وجدت على نوع ما وفي شكل من الاشكال منذ ظهر الانسان على الارض اي منذ مئتي الف سنة او اكثر على ما يقول علماء الجيولوجيا . فانهُ منذ وُجد أخذ يرى ان الاجتماع لازم لهُ للتعاون على المعاش واتقاء الوحوش الضارية التي كانت تشاطرهُ ارضهُ وتسطو عليهِ فكان اذا وجد نفسهُ في بقعة ما في جماعة قليلة حرص على افرادها فقدّم للضعيف المساعدة اللازمة وآتاهُ بالاثمار والحبوب ليأكل والماء ليشرب واوراق الاشجار ليكتسي وآواهُ في كهفهِ حتى يشتد ويكون لهُ عونًا على دفع ما ينتابهُ من الشرور والاخطار . نعم كان يفعل ذلك حبًّا بمصلحتهِ اكثر منهُ بمصلحة الضعيف ولكنّ عملهُ هذا يعدّ ضربًا من ضروب الاحسان ونوعًا من اعمال الجمعيات الخيرية مهما كان الباعث عليهِ والداعي اليهِ

ولما لم يكن مرتقيًا رقيًّا حقيقيًّا كان اذا عدا عدوهُ واشتدّ ساعدهُ وأمنَ الاخطار ترك الضعيف وشأنهُ عليلاً كان ام عاجزاً ولم يهتمّ بغير نفسهِ. ولعلهُ دام على ذلك اعصراً حتى ارتقى بعض افرادهِ وارتقى المجتمع الانساني بهم بعض الارتقاء فنمت او تولدت فيهِ عاطفة الحنان وانتقلت العناية بالفقير والعاجز والعليل الى رؤساء الاديان من كهنة هياكل وخدمة كنائس وشيوخ مساجد مهما كان الدين وسواء عبد الانسان ربًّا واحداً ام الف ربّ

فقد كان الإحسان قبل موسى وبعدهُ من اهمّ الفروض الدينية . ففي الديانة البوذية هو اشرف الفضائل وبدونهِ مهما عظم الانسان وتعددت حسناتهُ الاخرى لا يكون بوذيًّا حقيقيًّا حتى أنهم جعلوا للإحسان الهًا لهُ الف يد وفي راحة كل يد عين دليلاً على علو شأنهِ وعظم مهمتهِ وكذلك فعل الصينيون واليابانيون . وكان للإحسان هذه المرتبة نفسها عند المصريين القدماء والبابليين والاشوريين فقد وجدوا في نواويس الجثث المحنطة منذ اكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح دروجاً من البردي كان المصريون القدماء يضعونها مع الجثث لتستعين بها النفس في دفاعها لدى الديان اوسيرس عندما تبعث وتلبس الجسد. ويتضح من هذه الدروج ان الاحسان كان من اهم الاعمال التي يجب ان تقدّمها النفس في يوم الحساب لتنال السعادة الابدية وهذا بعض ما جاء فيها « اني طاهرة يا الهي فقد

كنت اقدم خبزاً للجائع وماء للعطشان وكساء للعريان »

هذا فضلاً عن المنزلة التي وضعت الاحسان فيها الديانات الثلاث الكبرى الموسوية والمسيحية والمحمدية فكان خدمة الدين ولا يزالون كذلك اشبه بجمعية خيرية يطعمون الفقير ويكسون العريان ويؤاسون العليل

فلما صعد العمران بعض الدرجات في سلم الارتقاء اخذ الانسان يشعر انهُ مقصّر تقصيراً فاضحاً في هذا السبيل وان ما يفعلهُ لخدمة الاديان ليس الاَّ القرد اليسير مما يجب عملهُ نحو العاجز والفقير والعليل . فشرع ينشىء الجمعيات الخيرية المستقلة في كل بلاد ارتقى فيها ولاسيما منذ فجر القرن السادس عشر . ويطول بي الكلام اذا اخذت اعدّدها واعدد اغراضها في البلاد الغربية والشرقية سواء كانت مؤلفة من رهبان وراهبات وقفوا حياتهم للبرّ وعمل الخير وانقطعوا عن ملذات هذا العالم من اجل ذلك كما هو الحال في فرنسا او من محسنين تبرعوا باموالهم وارسلوا البعثات المختلفة الى الاماكن القاصية لتعليم وعمل الخير كما هو الحال في اميركا وانكلترا وغيرها. او من افاضل وفواضل مثل اعضاء هذه الجمعية يضحون بجانب كبير من اوقاتهم لاستنداء الاكفّ ومؤاساة المرضى وتعليم الفقراء واطعامهم. فان القصد من هذه الكلمة ليس تاريخ الجمعيات الخيرية على انواعها بل بيان ضرورتها لترقية العمران وشأن الانسان ومنزلتها بالنسبة الى الجمعيات الاخرى علمية كانت او صناعية او زراعية والمجال الواسع الذي لا يزال امام محبي الانسانية في هذا السبيل

ولست آتياً بشيء جديد عنها لا تعلمونهُ ولكني مردّد على مسامعكم ما هو معروف لديكم لعلّ في الاعادة افادة لاسيما وقد ظهر في هذه الحرب ان مدنيات بعض الامم طلاء خفيف خارجي وان بعض الانسان لا يزال وحشاً ضارياً بل اشد من الوحش قسوة واكثر شراهة رغماً عن تأنقهِ في المأكل والملبس وبناء القصور وزخرفة الدور ورقيّه في الصناعة والزراعة والعلم والطب وأن المبادىء التربوية والفضائل السامية والاخلاق الكريمة التي بدونها لا يرتقي العمران ولا يمتاز الانسان عن الحيوان الامتياز الحقيقي والتي يسعى بعض الكرام لنشرها بالوعظ مرة والارشاد اخرى وبواسطة الجمعيات الخيرية واقامة المستشفيات وبناء المدارس وتشييد الملاجيء وغيرها من الوسائل العملية لا تزال مجهولة عند البعض او لم تتأصل فيهم وبعيدة عن البعض الآخر بُعد الارض عن السماء

ان الباحث في تاريخ العمران يرى ان ارتقاءه لم يكن مضطرداً ولا عاماً وهذا ما حمل بعض المفكرين على مخالفة الفيلسوف سبنسر واتباعه في أن ناموس الارتقاء التدريجي لا ينطبق على المجتمع الانساني كما ينطبق على سائر انواع الاحياء وحجتهم في ذلك ما يرى من جمود بعض الامم كجمود الصين وغيرها وتأخر بعضها بعد ان علا كعبها في المدنية وبلغت من العلم والصناعة والتجارة منزلة رفيعة كتأخر مصر وبابل اسبق امم الارض الى التمدن والفينيقيين والحثيين والفرس والهنود واليونان والرومان الذين لم يبقَ من عظمة اكثرهم سوى اطلال هياكلهم ومدافن ملوكهم وعظمائهم . وسواء صح زعم هؤلاء او اولئك فلا شك ان التقدم في العلم وحدهُ لا يضمن ترقية العمران ترقية مضطردة وانهُ ان لم تنتشر المبادىء الادبية والاخلاق الراقية والفضائل السامية وتتأصل في الامم جميعها او معظمها بقي العمران جامداً او منحطاً على درجات تختلف باختلاف تمرّ هذه المبادىء وسيلغ الفضائل في كل امة

لقد بلغ العلم منذ صدر القرن التاسع عشر حتى الآن ولاسيما في الاربعين سنة الاخيرة مبلغاً لم يصل اليهِ في زمن من الازمان السالفة وأفاد العمران فائدة لا تكاد تقبل الزيادة فكتشفات باستور ولستر وكوخ وورو وغيرهم في علم المكروبات والاهتداء الى العلاجات الناجعة في الجدري والدفتيريا والتتانوس والحمى الصفراء والملاريا والالتهاب السحائي والتيفوئيد وغيرها واكتشاف اشعة رنتجن وخواص الراديوم والطرق الحديثة لاستئصال الاعضاء المؤوفة في جسم الانسان وفي جراحة القلب والشرايين رفعت الطب الى مستوى لم يكن يحلم بهِ احد في القرن الثامن عشر وما تقدمهُ من القرون . ومثل ذلك يقال في الاكتشافات الحديثة في البخار والكهربائية والكيمياء مما رقى الزراعة والصناعة والتجارة الى درجة ليس وراءها زيادة لمستزيد . فطار الانسان في الهواء وغاص تحت الماء وقرّب الابعاد ودك الاطواد وأثار الظلام وبدّد الاوهام وطمح الى مخاطبة الكواكب في السماء حتى اصبحت اعمالهُ اشبه بالعجائب الالهية منها بالامور الطبيعية فالتلغراف السلكي واللاسلكي والتلفون والسكك الحديدية والسفن البخارية والسيارات والطيارات والمراكب الهوائية والغواصات والتورتلغراف والسنماتوغراف وغيرها بعض اعمالهِ . وكلها لو لم نكن قد الفناها وعرفنا اسرارها لعددناها آيات سماوية فوق الطاقة البشرية وعبدناها كما عبد اسلافنا الحجارة

والارياح والشمس والقمر والنجوم والبحار والنار وكل شيء توهموا فيهِ القوة او الشدة او العظمة او الجمال . وحسب المرء ان يقابل اي قرية باحدى العواصم ليرى كيف ارتقى العمران في مئة السنة الاخيرة والى أي درجة وصل الانسان من التنعم والترفه ولين العيش حتى غرَّهُ السَّراب وظن الاكثرون ان هذا الترقي ترقٍّ حقيقي وان عمران هذه الايام اثبت قاعدةً وأقوى اركاناً من عمران الفينيقيين واليونان والرومان ومَن سبقهم وان الانسان أخذ يسير سيراً مضطرداً في بعض البلدان الى الغاية القصوى التي تضعهُ في مستواهُ الحقيقي وتميزهُ عن الحيوان الاعجم

ولكن القوا الي اسماعكم لاقرأ لكم بعض اعمالهِ نقلاً عن جرائد العاصمة :

« هجم احد النشالين على سيدة في يدها كيس من الذهب في الشارع العباسي فاختطفهُ واختطف الحلق من اذنيها بعد ان شرمهما ولاذ بالفرار »

جاء من السويس ان فرنسيسكو ديبونو طعن يعقوب نجرينو عدة طعنات بسكين وُجد سمهُ نقل الجريح الى المستشفى حيث توفي على أثر وصولهِ ولم تعلم الاسباب بعد »

جاء من امبابه انهُ قد وجدت جثة رجل مقطوعة الرأس والساق بفرع رشيد بالقناطر والتحقيق جار »

« دخل شريران في زفتى على امرأة وابنها وهما نائمان فذبحاها وتمكن حضرة النشيط محمد بك عطيه مأمور مركز زفتى من القبض على الجانيين فاعترفا بالجناية »

« ورد من شبراخيت ان أخوين من اهالي الاصلاب قتلا والدتهما خنقاً ودفناها سرّاً وشهدت عليهما اختهما

« دخل أحد الاشقياء منزل عبد الحميد حسن بالاسكندرية في اثناء غيابه فقتل امرأتهُ وولدهُ وأخذ ما على المرأة من الحلي ولما لم يستطع نزع خاتمين من اصبعي يدها قطعها لانهما وجدا قرب الجثة »

وليست هذه الحوادث بالنادر الذي لا يبنى عليهِ قياس او مما يحصل مرة او مرتين في العام ولكنها تقع يومياً في ارقى عواصم الارض والمدن العظيمة في كل بلاد وجدت فيها جرائد تنقل عنها تعليقاً يهيج العواطف ويسر النخوة في رؤوس المفكرين من الناس والمسئولين عن نظام الاجتماع فانها لو فعلت طمحوا الى الاصلاح وفعلوا اضعاف اضعاف ما يفعلون الآن من تخفيف ويلات البشرية

والغريب ان هذه الفواجع تقع في زمن الراحة والسلم والاجتماع الانساني غير مدفوع بتيار من الاضطراب او متأثر بعوامل فوق العادة تفقدهُ التوازن بل ساكن مطمئن همهُ ترقية شأنهِ والتفنن في ما يزيد في تنعمهِ وترفههِ من ملاذ هذه الدنيا ووسائل الراحة فيها. ولذلك فهي على جسامتها ليست منتهى ما يرتكبهُ الانسان من الموبقات

فاذا شئتم معرفة ما هو اشدّ منها هولاً فاقرأوا بل فكّروا لانكم جميعاً قد قرأتم او سمعتم بما فعلهُ الالمان في هذه الحرب في البلجيك وشمالي فرنسا والبلغاريون في البلاد التي اجتاحوها كم نهبوا واحرقوا من المنازل وقتلوا من النساء والاطفال وارتكبوا من الفظائع وصنوف التعذيب والتخريب — كانوا يبقرون الحبالى ويقتلون الاولاد اشنع القتلات امام عيون امهاتهم ثم يذبحون هؤلاء ويقطّعون اوصالهن . واقرأوا كذلك ما اصاب الارمن في بلادهم — قالت جريدة البتي بارسيان التي تصدر في باريس ما ترجمتهُ :

« لقد اظهر التحقيق عن مذابح الارمن ان عدد الذين قتلوا من رجال ونساء واطفال يبلغ مليوناً ونصف مليون وان المسئولين عن هذه الملحمة الهائلة هم الالمان الذين اقرّوها ونظموا سيرها لكي لا ينجو الا طويل العمر من اولئك الارمن المساكين »

وقد ذكرت تلك الجريدة ان الفظائع التي ارتكبت في العين من النساء لم تترك لهُ القرائص ويندى لهُ وجه الانسانية خجلاً ويندر ان يكون لهُ مضارع عند اشدّ الاقوام توحشاً . صبوا عليهن زيت البترول واحرقوهن ثم نخلوا رماد جثثهن بمناخل ليستخرجوا الجواهر التي كانوا يعتقدون انهن ابتلعنها

وذكر بعض الذين نجوا انهم كانوا يفعلون بالرجال ما لا يقل عن ذلك فظاعة كانوا يستأصلون عيون البعض ويفقأون عيون الآخرين وكانوا يزجون المئة والمئتين معاً في اقبية متينة الابواب محكمة القفل ويتركونهم حتى يموتوا جوعاً واختناقاً . ويطول بي الكلام اذا زدت هذه الصور شرحاً او اكثرت منها. ولولا حرمة السيدات والخوف من ازدياد اضطهاد لذكرت ايضاً بعض ما كان يجري في سوريا والاناضول وما فعلهُ الروس بعضهم ببعض وباسرى الاتراك

وليت كتاب هذه الحوادث قد طوى وامرها قد انتهى فان الاخبار قد جاءت في هذا الشهر بل في هذا الاسبوع منبئة بالمذابح التي تجددت في ارمينيا

والفظائع التي ترتكب فيها فان تسعة عشر الفاً من سكان مرعش قتلوا ذبحاً . والذين فروا ويبلغ عددهم اربعة آلاف مات منهم الفان برداً وجوعاً والآخرون وكلهم وصلوا الى مرسين في حالة تدعي الاشفقة وتذيب الاكباد . ومثل ذلك يقال فيما يفعلهُ البلشفيون في مقاوميهم من ابناء جنسهم في روسيا . وكل ما يفعلهُ ساسة العالم المتمدن ازاء هذه الفظائع انهم يجتمعون ويتباحثون ثم تنفضُّ اجتماعاتهم على لا شيء او على ان يحتجوا او على ترك الحبل للقتلة على الغارب

واذا قلنا ان المدنية ليست راقية بين الروس والاتراك والبلغاريين فما عذر الالمان وقد كان يظن انهم من اعلى الامم كعباً في المدنية ومن ارقاهم في سلم العمران وان العلم بلغ عندهم مبلغاً لم يصل اليهِ عند سواهم

نعم بلغ العلم عندهم شأواً بعيداً ولكنهُ لم يرقِّ العمران الترقية الحقيقية اذ لم يرافقهُ الرقي في المبادىء الادبية والفضائل البشرية وعواطف الاخاء والاحسان التي تسمى في تعميمها الجمعيات الخيرية — فكانت النتيجة انهم استخدموا احدث المكتشفات العلمية واقوى المركبات الكيميية لابادة الناس بالقتل والاحراق والتسمم والاختناق وللتخريب والتدمير وارجاع العمران القهقرى مئات من السنين . فانهم قتلوا من الروس والبلجيكيين والفرنساويين والانكليز والاميركان وغيرهم ما لا يقل عن خمسة ملايين نفس واخربوا في ولايات فرنسا فقط مايتين وخمسين الف منزل الى اسسها وعطلوا مايتين وخمسين الفاً غيرها . فمدينة رنس مثلاً لم يبقَ من منازلها الاربعة عشر الفاً سوى الفين فضلاً عن الغابات التي احرقوها والمناجم التي اغرقوها والطرق والجسور التي نسفوها

وقد اتلفوا وخرّبوا ودمروا اكثر من ذلك في البلجيك وغيرها من البلاد التي امكنهم ايصال اذاهم اليها فان مدينة اوستند الزاهرة في روضة البلجيك لم يبقَ فيها حجر على حجر وكان شعارهم اينما حلوا التدمير والتخريب والارهاب والتعذيب

افهذا هو الانسان الذي يفخر بانهُ خلق على صورة الله وان الله نفخ فيهِ من روحهِ . وهل هذا انسان القرن العشرين الذي نشأ على اختبار من سبقهُ منذ الوف من السنين وباهى بآدابهِ واخلاقهِ ومدنيتهِ امم العصور السالفة

لعمري ان عرب الجاهلية الذين كانوا يدفنون البنات احياء مخافة الحاجة والعار حتى نزلت الآية (ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم) وهنود اميركا

الذين تُضرب الامثال بقسوتهم فيهم من عواطف الانسانية ومعناها اكثر مما في بعض اهل هذا الزمان الذين كانوا يجوّعون الاسرى عمداً حتى يموتوا ويرمون القنابل من الجوّ على الشعوب الآمنة فيقتلون النساء والاولاد ويفرّقون بالطوربيد والديناميت المرضى والممرضات في مراكب الاستشفاء ويفعلون من ضروب التعذيب والارهاب ما يندى لهُ وجه تيمورلنك حياء ويأنف نيرون ان ينسب اليهِ

واني لست ارمي الكلام جزافاً في ما اقول فقد ذكر العلاّمة مرجن الاميركي عن بعض هنود اميركا انهم اهل ولاء ووفاء ولو تحت اشدّ الاخطار وان ربوعهم ليست ربوع التوحش والهمجية كما يظنها البعض بل فيهم من رائع الفضائل ولطف الشمائل ما ليس عند كثيرين من الاوربيين والاميركيين حتى ان اهل الولايات المتحدة أخذوا كثيراً من نظامهم السياسي عن الهنود لان حكومتهم شورورية كحكومة اميركا. وذكر المستر ويلد الانجليزي انهُ عاش في شرق السودان زمناً طويلاً فرأى بين قبائل الهمذوة من حسن الضيافة وكرم الاخلاق والآداب الرائعة ما قل نظيرهُ ولم يعرف ان احداً منهم مات جوعاً مدة الثلاث السنوات التي قضاها بينهم وخبرهم بها رغماً عن القحل الذي كان يصيب البلاد لقلة المطر احياناً، وفي لندن ونيويورك وبرلين وفينا قلما يمضي اسبوع لا يموت فيهِ بعض الفقراء جوعاً

اما عرب الجاهلية فان ما وصل الينا من آثارهم واشعارهم يدل على انهم كانوا في الذروة العليا من كرم الاخلاق والجود والسخاء

وها كم بعض اقوالهم في هذا المعنى: — قال رجل من بني قريع:

وانك لا تدري اذا جاء سائل أأنت بما تعطيهِ ام هو اسعد

وقال عروة بن الورد:

دعيني اطوّف في البلاد لعلني افيد غنىً فيهِ لذي الحق مجمدُ
اليس عظيماً ان تلمّ ملمة وليس علينا في الحقوق معوّلُ
فان نحن لم نملك دفاعاً بحادثٍ تلمُّ بهِ الايام فالموتُ اجملُ

وقال حاتم الطائي وهو غاية في الكرم والايثار على النفس

اذا كنتَ رَبَّ القدر فلا تدع رفيقك يمشي خلفها غير راكب
انخها فاردفهُ فان حملتكا فذاك وان كان العقاب فعاقب

ستأتي البقية